

دراسات

درس غرامشي

الطاهر لبيب

عندما حوكم غرامشي* طالب ممثل موسيليني بأن « يوقف هذا الدماغ عن الاشتغال مدة عشرين سنة » ، وعندما طلوب بطلب العفو أجاب : « هذه طريقة تعني الانتحار ، وليس لي أية رغبة في الانتحار ». الخط واضح : رفض الماهنة واصرار على التعامل مع الواقع من وراء القضبان . ولم تكن الفاشية الصاعدة تتوقع أن السجن المفهي إلى نزيف في الدماغ ودفن في مقبرة الانجليز سيخرج منه اثنان وثلاثون « كراساً » هي أعمق ما كتب غرامشي واشده ارتباطاً بالواقع وتاثيراً فيه .

غرامشي - كسيرة ذاتية - ليس أول أو آخر مثقف ثوري يموت في المراهنة على ثورة لا تأتي . الا أن للسجن بعده معرفياً : الكتابة تحت رحمة الذاكرة والرقابة . من هنا كان ميل غرامشي إلى الثورية والإشارة المقتضبة ، وكان اضطراره إلى تغطية اسماء بأسماء أخرى أو إلى استعمال مفاهيم يتراجع القارئ بين ما لها من مدلولات سائنة (تقبيلها الرقابة) ومدلولات جديدة عليه تحديدها . لكتابات غرامشي في السجن ، اذا ، وضع « ايبيستيمولوجي » خاص . ومهما كان التعاطف مع السجين قوياً فهو لا يضمّن معرفة ما فكر فيه حقاً . بل كثيراً ما يكون التغفي عجزاً عن الفهم إذا

* انطونيو غرامشي (1891 - 1937) من جزيرة سردينيا الايطالية التي عاش وضعاً شبه الكولونيالي وتلقى فيها تعليمها عسرته صحة هشه وطفولة مضطربة . التحق بكلية الآداب بتورينو (1911) فعمق معلوماته ورؤيته السياسية وتعرف على توليتي وأخرين من سيقودون الحزب الشيوعي الايطالي فيما بعد . انخرط في الحزب الاشتراكي (1914) ثم انشق عنه . ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي (1921) الذي عمل على تعاونه مع الاشتراكيين ضد الفاشية ، ثم قاده - من قبنا - بعد ايقاف بورديجا (1923) ، انتخب نائباً للبرلانا (1924) الذي لم تحل حمساته دون ايقافه وسجنه (1926) . من أهم كتابات سجنه : « رسائل السجن » و « كراسات السجن » .

الطاهر لبيب

سبق الرمز او الشعار المعرفة . لهذا كان النداء المتجدد لاعادة بناء الرؤية الفرامشية ، مروراً بالنسيج المفاهيمي القائمة عليه .

لكن لماذا وكيف بقي غرامشي مجهولاً ، عملياً ، أربعين سنة اكتشف ، فجأة ، بعدها أنه «لينين اليوم» أو أنه – على الأقل – ثالث الماركسيّة بعد ماركس ولينين ؟ أسباب تجاهله (اساساً : رفضه للدوغماّتية ووضع «المفكّر الملعون» داخل الحزب الشيوعي الإيطالي في العهد السستاليوني ...) أقل تعقداً من العوامل التي جعلته يطفو في منتصف السبعينات الأوروبيّة : ازمة الفكر الثوري في المجتمعات الغربية المتأزمة . البحث عن مخرج هو الذي بعث غرامشي .

هلع البحث أو البعث مكن تيارات كثيرة من أن تجد فيه ما تبحث عنه : الشيوعيون والاشتراكيون والفوضويون واليسار المسيحي ، وما في هذا الجمع من وسائل . كلهم وجدوا لغة جديدة وأسند غرامشي للبعض أدواراً ما كانوا يحلمون بها : استلموها كمثقفين . ثم هدا روع ١٩٦٨ وتوسيع الاطلاع على نصوص غرامشي وتعمق الصبر في تحليلها . اكتشف الماركسيّون أن غرامشي طور ماركس ولينين – مع التجاوز احياناً – وأنه أكثر الماركسيّين تقدماً في طرحه النظري – السياسي لطرق المرور الى الاشتراكية في المجتمعات الرأسمالية المقدمة .

كان هذا – في الوقت نفسه – متنفساً ماركسيّاً : الماركسيّة ليست ، «إذا» ، نسقاً فكريّاً سلطويّاً نهائياً . هي مشروع مفتوح تثريه المساهمات النظرية وتعديل منه خصوصية التجربة . وأصبحت مرونة غرامشي محل «ترانزيت» : يمر منه – ويلتقى – مفكرون ومنظرو أحزاب متباعدة . ثم تحط الشيوعية الأوروبيّة فيه ترحالها كواحة غير منتظرة . لكن امتداد غرامشي الإيطالي لم يقف عند فرنسا وأسبانيا . عرفه اليسار الانجليزيي منذ السبعينات ووجد عنده اليسار اللاتينو امريكيي تساؤلات قريبة منه ، غير معهودة .

اما التساؤل : لم لم يكتشف تقدميو الفكر العربي غرامشي ؟ فتساؤل ساذج . لكنه فرصة لتأكيد تبعية الفكر التقدمي ايضاً . الافتراض وارد : لو كان نصيب البلاد العربية من الاستعمار أكثر طلبة ، لكان – احتمالاً – مصيره أرداً ، ولكنه يكون أكثر حقاً في معرفة غرامشي . صلتة الأن به غير مباشرة : نصوص مترجمة ، ثم غارودي والتوصير ويولانتراس ... اقساطاً وتأويلاً . ولا أظن ان صدمة ١٩٦٧ هي التي وجهت الانتظار الى غرامشي ، فعرّيت بعض نصوصه (الامير الحديث : ١٩٦٩ وقضايا المادية التاريخية : ١٩٧١) . كان انتقاله الى بيروت بالذات صدى باريسيّا .

دراسات

اما في المغرب العربي فعرج عليه البعض عرضاً او حداً*

لا يمكن ان يكون المطموح في لفت انتباه كهذا - وهو ، ايضاً ، تابع ا- تلخيص فكر غرامشي . والمتبع لما كتب عن غرامشي تدهشه التجزئة او الرغبة في ابراز حدود المحاولة التأليفية . هذه ، مثلاً ، اهم العناوين الصادرة - في فرنسا - « حول » غرامشي حتى الان : غرامشي والكتلة التاريخية ، غرامشي والمسألة الدينية ، غرامشي والدولة ، الفكر السياسي عند غرامشي ، ثم « قراءة » غرامشي ، « من اجل » غرامشي ، « ملاحظات » حول غرامشي ، « حول » غرامشي .

الممكن هنا لا يتجاوز الاشارة الى بعض ابعاد المساهمة الغرامشية باعتبارها من اثرى المساهمات احياء بتساؤلات عربية :

نقول « احياء » لتحاشي رد فعل معهود : غرامشي ليس حلولاً جاهزة للاستيراد ، ولا أصبح كارثتين : واحدة بين أيدي الاتباع وأخرى في أنفواه من يخشون تبعاته .

ككل مفكر ثوري أصيل . « اوروبية » غرامشي لا تقبل المشرقة ، لكنها ليست مقلقة أمام الجهد الشرقي المبدع . ان خصوصية الفكر او التجربة التاريخية لا تنفي الكونية . العكس أقرب الى الصحة : كثيراً ما يكون عمق الخصوصية شرطاً وسبباً في كونيتها . واعتقد أنه ما كان لغرامشي أن يتشرّد لو لا تعمقه في خصوصية المجتمع الإيطالي الذي كان يصر على ابراز انتماهه الى جنوبيه . التنبه الى هذه الجدلية بين الخاص والعام يزيل حرج او خوف « الخصوصية العربية » المصطنع ليجعل منها مقوله علمية أساسية ، تماماً كـ « الخصوصية الإيطالية » عند غرامشي .

ولد غرامشي في سردينيا : انتماء لم يكن يذكر لولم يكن قوياً الى حد الثورة ، ولو لم يكن فيه درس اول : الثورية ليست نفياً لخصوصية الانتماء . الجهل بالواقع هو الذي يصعد - غالباً - بـ « الثوري » الى قضايا الاشتراكية العالمية مع دخان المقاهي . غرامشي صعد إليها عبر الجنوب الإيطالي .

لعل الصفحات الثلاثين التي كتبها غرامشي حول « المسألة الجنوبية » ادق دليلاً على ذلك . وهي - في الوقت نفسه - من أكثر نصوصه ثراءً وكثافةً :

* مثلاً : رجع اليه محمد براده في « منتور وتقطير النقد الأدبي » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٩ كما رجع إليه الطاهر لبيب في « سوسبيولوجيا الثقافة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ . أما العروي - وقد كتب عهد الأيديولوجيا والثقافيين - فلفت غرامشي انتباهه ، لكن دون اهتمام خاص .

الظاهرات

« المجتمع الجنوبي كتلة زراعية كبيرة تكونها ثلاثة شرائح اجتماعية : جماهير عريضة من الفلاحين غير متبلورة الشكل ، مفككة ، ومثقفو البورجوازية الريفية الصغيرة والمتوسطة ، ثم كبار ملاك الاراضي والمثقفون الكبار ». هذه الكتلة الزراعية « تشتغل ، في جملتها ، ك وسيط وحارس للرأسمالية الشمالية ، ولكل بار البنوك ». وتحليل هذه الكتلة عمل نظري ومنهجي متكامل اخترقت امتداداته كامل اعمال غرامشي فيما بعد : كمفصل مستويات الكتلة التاريخية ، العلاقة الجدلية بين البنية والبنيّة الفوقية ، العلاقة بين المجتمع المدنى والمجتمع السياسي ، الهيمنة (او الهيجيمونيا) ، دور المثقفين في تماسك الكتلة التاريخية او في تفتيتها ، دور الحزب كـ « مثقف جماعي » ، الخ

و « الكتلة التاريخية » مفهوم اساسي في التحليل الغرامشي باعتبارها وضعا تاريخيا شموليا او لحظة تاريخية مفتوحة تخترقها قيم ثقافية ايديولوجية ، تقوى هيمنتها بالربط العضوي الجديي بين مستويات الواقع الاجتماعي . هذا الربط - ولحمته المثقفون - يمكن ان يكسب الكتلة التاريخية قوة واستمرارا او ان يفككها - في ازمة عضوية - فيساعد على خلق كتلة جديدة تتحققها هيمنة طبقة جديدة : هناك كتلة كلما تحققت هيمنة طبقة اجتماعية على سائر الطبقات ، أي عندما تستطيع تمرير مصالحها ، على أنها « معالم الجميع » مكتسبة ، بذلك ، تمثيلية او شرعية تسود كايدلوجيا .

لكن غرامشي لم يكن يلقي درسا في جامعة . كان - وهو يكتب « المسألة الجنوبية » - القائد الفعلي للحزب الشيوعي الايطالي . كان يبحث عن خصوصية الحل الثوري الايطالي . لماذا نجحت الثورة في روسيا ولم تنجح في ايطاليا ؟ هذا التساؤل لتساؤلات كثيرة : لماذا فشلت حركة تورينو و « مجالسها » وفشل الحركات الثورية في البلدان المصنعة الغربية ؟ لماذا وكيف أمكن للفاشية الصاعدة أن تجد سندأ قويا لها في جماهير البورجوازية الصغيرة ؟ كيف يمكن ان تحمل جماهير مضطهدة امكانية تحولها الى قوة ايديولوجية فاشية ؟ بصفة اعم : كيف يمكن لطبقة تسيطر أن تكسب « رضى » الطبقات المسيطر عليها ، رغم توفر « الشروط الموضوعية » للرفض ؟ كيف يمكن ، اذا ، لرأسمالية متأنمة أن ت Tactics ازتمتها ؟

ولم يكن بد من ان تعري هذه التساؤلات عن أماكن بيضاء في « رأس مال » ماركس . كان « المنطق » يقتضي ان تحدث الثورة في انجلترا او فيmania او في فرنسا . حدثت في روسيا . لا يجهل غرامشي مقوله ماركس عن التناقض بين قوى الانتاج وعلاقة الانتاج المؤدي الى الثورة . لكنه تسأله : « متى يمكن القول بأن الشروط

دراسات

متوفرة لكي تولد وتتطور ارادة جماعية قومية – شعبية ؟ » .

لماذا نجحت الثورة في روسيا ولم تنجح في ايطاليا ؟ : أخطر تساؤل وضعه غرامشي في حياته الفكرية والسياسية : على بساطته ! وأغلب الظن أنه لو لم يلق هذا التساؤل – أو أنه تساءل : كيف نفعل « مثل » روسيا – لتغير مصيره. الاهتمام به اليوم هو – أساساً – نتيجة « لماذا ؟ » الايطالية وما اقترح لها غرامشي من أجوية فكرية واستراتيجية ، منحه السجن وقتاً كافياً لصياغتها :

« لما كانت الدولة في الشرق هي كل شيء ، فقد كان المجتمع المدني بدائيًا هلاميًا . أما في الغرب فكانت هناك علاقة توازن بين الدولة والمجتمع المدني ، وسرعان ما كانت تكتشف – وراء ارتجاج الدولة – صلابة بنية المجتمع المدني . لم تكن الدولة إلا خندقاً متقدماً توجد وراءه سلسلة قوية من الحصون والمعاقل » .

خصوصيات : الطبقة السائدة في روسيا لا ترتكز على مجتمع مدني متتطور ، فلا هيمنة لها فيه . لم تستطع هذه الطبقة نشر هيمنتها الايديولوجية لتخلف وسائلها ، ولا متداد امبراطوريتها . كان جهاز السيطرة السياسية أوسع قطاع في البنى الفوقية ، لذلك كان الصراع يدور حول جهاز الدولة . وكان الاستيلاء عليه ، مباشرة ، امراً معكنا ثم ضامناً لفرض السلطة الجديدة .

يختلف الامر عن ذلك في الغرب : ترتكز الدولة فيه على مجتمع مدني واسع ومعقد ، تتنوع فيه المؤسسات ووسائل الهيمنة الايديولوجية . عمل الدولة كبير في المجتمع المدني ، ولا ينحصر في « المجتمع السياسي » أو في فرض سلطة مادية قانونية الا في ازمة عفوية لم تعد تسيطر فيها الدولة على مجتمعها المدني ، فتتجأ الى وسائل اكراهية مباشرة ، للمحافظة على سلطتها . الصراع قائماً ، اذا ، لتجريد الدولة من قيادة المجتمع المدني .

« ان الحزم الذي كان مباشرةً في روسيا ، وكان يدفع الجماهير ، في الشارع ، الى اللهب الثوري تعcede ، من اروبا الوسطى والغربية ، كل البنى الفوقية السياسية التي خلقها فيها اكبر تطور للرأسمالية . وهذا يسبب عملاً جماهيرياً اكثر بطنًا وحدراً ويطلب ، وبالتالي ، من الاحزاب الثورية استراتيجية وтикаً اكثر تعقداً واطول زمناً » .

ويطفو المثقف – من كل هذا – على حقيقته : كما هو في الواقع : مسؤول عن هباغة ايديولوجيا الطبقات وعن نشرها وتسويغها كرؤبة للعالم . قد لا يعني ذلك . هذه

الطاهر لبيب

لمسألة ثانية . المثقف صلة ربط بين البنية البني الفوقية . هو غير مستقل – ولو قال – ولا تكون الفئة المنتمي إليها طبقة . أما من بدا « دون رابطة عضوية فان أهميته لا يساويها ضالة الا الايديولوجيا التي ينتجها » . ويختلف المثقفون دوراً وتراتباً ، حسب درجة الانتفاء الى طبقة صاعدة (مثقف عضوي) او الى طبقة زالت او في طريقها الى النزال (مثقف تقليدي) ، كما تختلف الطبقات قدرة على خلق مثقفيها المرتبطين بمصيرها .

هذا الدور مسلوب في النصوص الماركسية . وقد ساهمت في السلب – او الثلب – اتجاهات عمالوية عند المثقفين أنفسهم : عقدة ، كما ساهمت في ذلك استراتيجية الحذر من سيطرتهم الايديولوجية السياسية . ميزة غرامشي أنه رد إليهم بورهم : دون مهانة . وبالرغم من أنه عمق مسألة المثقفين في « كراسات السجن » ، فإن تصنيفه لانتفاءاتهم وأدوارهم في « المسألة الجنوبية » يبقى أوضح تطبيق – يطول عرضه – لتماسك الكتلة التاريخية بفضل « موظفي البني الفوقية »

استراتيجيات : اعتمدت الثورة في روسيا الحركة والسرعة ، لكنها في الغرب لا مناص لها من اعتماد النضال الهيمني المتواصل : « ضروري ان ننتقد نقاط ضعفنا بلا رحمة وأن نتساءل ، أو لا ، لأي الاسباب خسرنا ، ومن كنا ، وأين كنا نريد الوصول ... ان السبب الرئيسي في انهزام الاحزاب الثورية الايطالية هو التالي : لم تكن لها ايديولوجيا تبلغها الى الجماهير ولم تعمق وعي المناضلين بقناعات اخلاقية ونفسية . كيف يمكن ، مع ذلك ، التعجب من أن بعض العمال قد اصبحوا فاشيين ؟ » .

في هذا توسيع لمفهوم الهيمنة بالنسبة لدكتاتورية البروليتاريا : لم يعد طاغياً فيه بعد السياسي القائم على أولوية العنف الثوري الذي عوضتها اولوية العمل الايديولوجي الثقافي في مجتمع مدنى غربى معقد . اذا كان المشروع الروسى لم يكن يحتاج الى هيمنة ما قبل ثورية ، فإن هيمنة البروليتاريا الغربية ليست مطروحة بالنسبة للدولة الاشتراكية عند قيامها فحسب ، بل هي مطروحة ، حاضراً ، كمقاومة ضرورية لهيمنة الطبقة الحاكمة ، هي مطروحة كهيمنة تقود قبل أن تحكم .

من هنا كان اهتمام غرامشي بالمؤسسات الثقافية وبالإنتاج الفكري : فلسفة ، دين ، أدب – بما فيه الرواية البوليسية ! – لسانيات ، اجتماع ، تربية ، فن ، الخ ... وكان اهتمامه الخاص بثقافة الجماهير وتراثها . هذه الجماهير لا تتوصل الى بلورة ثقافة عضوية مستقلة . ثقافتها خليط بين ما تلتقاء من الطبقات المسيطرة عليها

دراسات

وما يبقى لها من تراثها . وعيها لا يعبر ، بالضرورة ، عن واقعها ومصالحها ، وقد ينافق عندها الوعي العمل . لذلك لا يغول غرامشي على التناقضات ولا يتربّقها ترقب من يتصورها عارية سافرة ! هو أقرب إلى العمل الذي « ينظم – كضرورة تاريخية – الجماعات البشرية ويهيء الميدان الذي فيه يتحرك الناس ويكتسبون وعيًا بموقعهم ، ويناضلون » .

لا يستغرب ، اذا ، ان تتبني الشيوعية الاوروبية غرامشي ، وهي تطرح بدليلاً غير مألف في تاريخ الاحزاب الشيوعية ، وأن يقوم هذا البديل على خصوصية « الاشتراكية الديمقراطية » في البلدان الاوروبية . لا يستغرب ، كذلك ، أن تلتفت إلى غرامشي أجيال جديدة لم تتوصل إلى فهم اسباب عجزها عن فهم الواقع بعد أن مرّت بوهم الثورة الرابضة . كانت الايديولوجيا قد أصبحت عندها نفياً للتحليل وللجهد الفكري ، وبالتالي تسطيناً للممارسة السياسية .

ومهما يكن ، فالخطأ أن « يشرق » غرامشي . ان يرتكب الخطأ الذي لم يرتكبه غرامشي . هذا هدف الالاح على خصوصية غرامشي . غرامشي درس : فكراً وممارسة . قد يفيد كمصدر ايهاء بما تعودت رؤانا وتحاليلنا الناسخة اهمله من أبعاد واقعنا العربي . قد يوحى بتساؤلات جديدة حول اسباب عجزنا عن تغيير هذا الواقع . هذه التساؤلات ليست بمقدور « الاصداء » ولا بمقنور محترفي « نقد سياسي حقير » ، يومي ، يهاجم المجموعات الصغيرة الحاكمة والشخصيات التي لها مسؤولية السلطة « المباشرة » ، حسب تعبير غرامشي ... الداعي إلى تعميق الفكر الثوري .